من تراب الطريق ! (٦٨٢) ليس من دافع كمن هاجم ! (*)

عدم مواجهة ما تم فجر الثامن من يوليو ٢٠١٣ هروب ، ولا يليق بالإنسان إذا خلصت نواياه وصدق عزمه ، أن يفرّ أو يهرب أمام الملمات .. ولا شك أن نتيجة الاشتباكات فى ذلك الفجر ، ملمة من الملمات ، وجف بها قلب مصر ، وشجى لها كل مصرى ، أيًّا كان من صاحب الحق ، فالدماء التى سالت من هنا وهناك دماء مصرية ، عزيزة على مصر ، وعلى كل مصرى!!

والتزام الحياد واجب ، مهما كانت المشاعر والعواطف والانحيازات ، وطريق الحياد هو التزام الموضوعية ، والموضوعية طريق وهدف وغاية .. هى الأمان للباحث عن الحق وسط الأشواك .. فالميدان الآن ملىء بالأشواك، منها ما هو بفعل طبيعة الظرف ، ومنها المزروع عمدًا لتنبهم الرؤية ، ويتوارى أصحاب الأغراض ، ويتوه حسنو النية ، وسط الغابات والأحراش !!

الموقف المشتبك ، نجم عن عزل الرئيس السابق ، فأغلبية الشعب الهائلة، ترى أن هذا العزل واجب ، وأنه ضرورة لم يكن عنها محيص ، وأن القعود عنها تفريط جسيم فى حق الوطن والشعب ، وأن حماية الجيش

(*) جريدة التحرير فى ١٠/ ٧ ، المال فى ٢٠١٣/٧/١١

للشعب كانت ولا تزال حماية واجبة ، فلا هى تفضّل على مصر ، ولا هى انقلاب على الشرعية أو على حاكم ، وإنما هى لب الشرعية التى أهدرها الرئيس المعزول إهدارًا متتاليًا متتابعًا ، فى واقعات مشهورة لا يستطيع عارف عاقل عادل أن ينكر ما كان فيها من خروج جسيم على الشرعية ، أفقد الرئيس ذاته شرعيته التى كانت يوم الصندوق ، وارتد الأمر إلى الشعب ـ مصدر السلطات وصاحب الحق الأصيل ـ فى أن يقول كلمته ، فحسمها وقالها وطلب فى أغلبية كاسحة لا ينكرها بصير ـ الدعوة لانتخابات رئاسية عاجلة ، لم يحرم الرئيس (المعزول) من المنافسة فيها إذا أراد . ولكنه ركب رأسه وأبى ، وألقى خطابًا صب الزيت على النار ، فانتفض الشعب انتفاضًا لم يكن بوسع القوات المسلحة أن تغضى عنه أو تقعد عن بذل الحماية الواجبة عليها للشعب ولهذه الثورة الشعبية التى ملأت جنبات مصر وربوعها .

وعلى الناحية الأخرى ، رأت جماعة الإخوان ومن تبعها من بعض فصائل الإسلام السياسى ، رأت نقيض ذلك كله ، وتمسكت بشرعية الصندوق ، وبعدم جواز المساس بها أيًا كانت الحجج أو الذرائع ، ونازعت فى « أغلبية » المتنادين بالثورة ، وتمسكت بأن من تجمعوا بعشرات الملايين ، ما هم إلاّ فى عداد الألوف ، خلافًا لما رآه العالم كله وأحصته جهات عالمية متخصصة ومحايدة . ورأت الجماعة أن ما جرى محض انقلاب عسكرى وليس ثورة شعبية حماها الجيش استجابةً لما أراده الشعب ، وصممت على وجوب إعادة الحال إلى ما كان عليه ، ولا مراء أن الرؤية أيًا كانت من حقها، ولا يملك أحد المصادرة عليها ، ولا محاجاتها فى أسانيدها أو فى نيتها ، فالله

تعالى هو الأعلم بالنوايا ، والأسانيد حَمَّالة أوجه، والحوار أو المجادلة مجالهما مفتوح ، يتسابق فيه المتسابقون .

و لكن جماعة الإخوان خرجت عن حدود الرأى والحوار أو المجادلة، إلى « العصيان » ـ ولم أجد للأسف تعبيرًا سواه ـ ورفعت راية « الجهاد » للذود عن الإسلام ، فى صورة تحمل أن الواقفين على الصعيد الآخر ، ودعنا من أنهم الغالبية الغالبة لشعب مصر ، ليسوا بمسلمين ، أو فى أحسن الظروف ـ مارقون خارجون عن الإسلام ، ومن ثم وجب الجهاد المقدس ضدهم ، وأن القتلى فى هذا الجهاد ـ معدودون من الشهداء ، وانتشرت اللافتات التى يحملها بعض الشباب فى تجمعهم بميدان رابعة العدوية : « مشروع شهيد » ! ما أُعلن فى خطبة رآها العالم من أيام ، كان بمثابة « إعلان حرب » على من عدا جماعة الإخوان من بنى مصر ، شملت القوات المسلحة المصرية ، ولم ينج منها شيخ الأزهر الذى اكتفى الخطاب فى الجملة الأولى ـ بأنه ليس شيخ الإسلام ولا يعبر عن الإسلام والمسلمين، وكذلك لا يعبر « البابا » عن الأقباط ، وتوالت الخطابات المثيرة المهيجة ، ومنها ما توعد بأن المدخر الباقى مما سوف يقع فى إطار هذا الجهاد ، لا يدور ولا يمكن أن يدور بخلد أحد ، حتى قال قائلهم ـ وقد سمعته بنفسى ـ إن ما نراه من حرب فى سيناء، سيتوقف فورًا إذا أعيد الرئيس المعزول إلى منصبه!!

ما سبق فَجْر الثامن من يوليو ، وفى الليلة المشئومة التى تلاها ، روعت مصر عبر الشاشات بمشهد إلقاء الصبية ـ بالإسكندرية ـ من شاهق ، ورأت مصر مسيرات إخوانية تترك مكان التظاهر ، لتتجه إلى مكان المظاهرات

السلمية للشعب ، لتبادر بنى مصر ـ إخوتهم فى الوطن ـ بالضرب والجرح الذى وصل إلى حد القتل ، وشهد حى بين السرايات والمنيل وكوبرى الجامعة وبعض أجزاء المحور بالقاهرة ، وسيدى جابر بالإسكندرية ، جانبًا من هذه الحرب الضروس التى شنت تحت راية « الجهاد » !!!

ليس من دَافَعَ ، كمن هاجم !! الدفاع مشروع ، والهجوم عدوان لا مشروعية له ، وَدَفْعُهُ حقٌّ وواجب يحميه الشرع والقانون .

لم يكن التجمع أمام دار وثكنات الحرس الجمهوري رشيدًا ، وينذر بمواجهة خطيرة كان على العقلاء بالجماعة أن يدعو إلى فضه ، فدنيا الله واسعة ، ولا يوجد معنى للتجمع أمام الحرس الجمهورى إلاَّ التهديد والوعيد فى أحسن الفروض والاحتمالات ، وذلك فى حد ذاته لا عقل ولا حكمة فيه . بيد أنه بدلاً من الدعوة إلى العقل والتهدئة وفض هذا الحصار الضرير ، حملت أنباء الحدث المشئوم أن المتجمعين من الجماعة وأشياعها أو المستأجرين لتأييدها ، قد تركوا التجمع والاعتصام إلى شن « هجوم » لاقتحام دار وثكنات ومعسكرات الحرس الجمهورى !!! ومعنى ذلك أن المواجهة لم تكن بين الحرس الجمهورى و« معتصمين » ، وإنما كانت تصدّيًا لمهاجمين ومقتحمين !!!

والسؤال الذى لم يتوقف عنده العقلاء :

ما معنى « الهجوم » على معسكرات القوات المسلحة ؟!!

وما معنى « اقتحام » دار وثكنات الحرس الجمهورى ؟!!

ما معنى هذا وذاك ، حين يقترنان بحمل السلاح واستخدامه ؟!!

معناه بلا فلسفات ، أنه « اعتداء » قد يوصف بأنه « حرب » ، لأنه مشنون على القوات العسكرية للدولة المصرية !!!

هل سأل أحد نفسه : ماذا يُطلب من الجندى وضابط الصف والضابط، حين يرى القذائف النارية والحجرية وزجاجات المولوتوف مصوّبة إليه ، وأن الثكنة التى يحميها بحكم واجبه قد باتت مهددة بالاقتحام والسقوط ، وأن حياته نفسها قد صارت معرضة ، بل ونالت النيران من بعض الضباط والجنود ، فسقط أحد الضباط قتيلاً ، وأصيب جنود ، بعضهم بإصابات بالغة ، بينما أنساق الاقتحام تتوالى ولا تتراجع !!

هل مطلوب من الحراس المعتدى عليهم ، القائمين بحراسة ثكناتهم ، أن يقذفوا المهاجمين المعتدين بالأزهار والورود ؟!!!

فى العالم كله ، هناك مبدأ لا تريم عنه الجيوش والشرطة : من يرفع السلاح فى وجه الجندى يُقتل ! فلا بديل لذلك إلاّ قتل الجندى وانهيار الدولة !!!

وحق ، بل واجب الدفاع الشرعى ، مقرر فى الشرائع السماوية ، وفى كل القوانين الوضعية !!!

ولم يقل قائل أو متقول أن الحرس الجمهورى ترك داره وثكناته وذهب ليعتدى على أحد . وإنما يسلم الجميع بأن المعتدين قد أتوا إليه واقتحموا عليه داره ، وهاجمه المسلحون بالأسلحة النارية والأحجار وزجاجات المولوتوف ، فى أنساق متتابعة ، تستهدف بالهجوم « اقتحام » الدار والثكنات ، فماذا يمكن أن يفعل حراس الدار والثكنات والمعسكرات ؟!!

مقاومة العدوان والهجوم واجب ، تقره الشرائع وتقره القوانين ، ومن يفقد حياته فى الدفاع وصدّ العدوان لا جرم عليه وهو الشهيد ، والمهاجم المعتدى لا يمكن أن يكون شهيدًا ، بل تقيد الدعوى الجنائية ضده عن عدوانه غير المشروع ، ويقرر فقط بانقضائها لوفاة الفاعل !!!

ما كان أحد يحب أن يحدث ما حدث ، أو يقبل أن تراق قطرة دم مصرية، وما كان أحب إلىّ من أن تفيء جماعة الإخوان إلى الجماعة ، وتعمل بالتناغُم والتآلف معها ، دون أن تفقد هويتها ، فالاختلاف فى الرأى وارد ، وهو من سنن الحياة ، وقد قال رب العزة فى كتابه العزيز : «وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ» (سورة هود الآية ١١٨) .

كنت ولا أزال أتمنى أن تفيء الجماعة فى أدائها إلى سجايا الإسلام ، وفى مقدمتها الرفق والألفة والإسماح ، فالمؤمن فى الحديث الشريف : «آلف ومألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » ، والرفق مطلوب فى كل باب ، حتى مع الاختلاف ، ففى حديث الرحمة المهداة ـ عليه الصلاة والسلام : « ما دخل الرفق فى شيء إلاّ زانه ، وما خرج من شيء إلاّ شانه»، وكل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه ، وفى حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم : « لزوال الدنيا أهون على الله من قتل نفس بغير حق»، « لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا فى دم مؤمن لأدخلهم الله فى النار » . والله تبارك وتعالى يدعو إلى السلام ، وفى كتابه الحكيم : « وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ » (سورة يونس الآية ٢٥) . وفى الحديث الشريف : « لا تؤمنوا

حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ، أفشوا السلام بينكم».

لم أكتب لأرضي أحدًا ، ولا لأغضب أحدًا ، وإنما لأدعو الجميع ، وجماعة الإخوان قبل الجميع . لأنها محركة الأحداث الآن ، إلى كلمة سواء، لنحفظ مصر والمصريين ، فهي أبقى من كل الأشخاص ومن كل الجماعات والأحزاب !! مصر يا سادة !!!

* * *